الإسم: آسيا أحمد عبّاس.

طالبة في الجامعة اللّبنانيّة.

السّنة الجامعيّة: السّنة الثّالثة.

الفرع: الأدبُ العربيّ .

إسم الكليّة: كليّة الآداب و العلوم الإنسانية، الفرع الثالث.

لبنان كما أحلم به..

تجري الأيّام أسرع ممّا نتخيّل، و تبقى في خوالجنا ذكرياتٌ لم يمحها الوقت ولا السّفر.

أعود بعد خمس عشرة سنة، أواجه الماضي و أحلامي التي خبأتها في صندوقٍ قديمٍ محفور بالخيبات. لم أسمع منذ ولدتُ، الكلمات التي اعتادَها الأطفال، أول ما طرقت أذني لسماعه "لبنان، سويسرا الشرق."

لبنان هو رواية أسطوريّة كتبتها أيادٍ مستبسلة بريشة الكرامة والشرف، لنحيا،

فغدا "الحلم"، يشقّ طريقهُ لِيصبح توأمي، فطرتُ على حبِّ وطني، فأصبح سؤال"هل هذا لبنان الّذي أحلم به؟" هو السّؤال الذي يراودني دائمًا.

أعود الآن، أجرّ تعبي نحوه، أقابله كجيشٍ مهزومٍ لم يَعد بوسع الأيّام الماضية أن تجبرَ كسره و يأسه..

أعود لأقابل أمنياتي المرصّعة بالنّدوب، شهيدةَ صندوقي المهترئ، لأحييها مجدّدًا، فوحدي المدركة بما يحمل من آمالٍ مستحيلة.

تزاحمت دقّات قلبي فور رؤية هذا المربّعِ الخشبيِّ المصنوع بأملٍ و طموحٍ "لبنان كما أحلم به."

اقتربتُ ثمّ ابتعدت، و كأنّني أعي حجم الخيبة الموجودة فيه، سقطت دمعةٌ من عينيّ، هطلت متدفّقة على غبار هذه الأمنياتِ العتيقة، حسمتُ شعوري في تلك اللّحظة، جثوتُ على ركبتيّ كشيخٍ متعبّدٍ يقدّس صلاته، حملتُ بيدينِ عجوزتينِ بارتدينِ ثقلَ هذه الأحلام، اخترت الحلم الأوّل، كان قصرًا من رمل الشاطئِ، كنتُ و أخي زيد قد بنيناه بأيدينا الحالمة، صرخ أخي بقوّة: "أختي، عندما أكبر سأبني قصرًا ضخمًا لا يُهدم"!.

شهقتُ بحسرةٍ، زيد مات في حادثة المرفأ منذ بضعة سنواتٍ، الشّاطئ يرتدي حلّةً من رماد، وأنا أغنّي بألمٍ ما أعانيه" بحبّك يا لبنان..يا وطني بحبّك."

فكلّما مررتُ ببيروت الثّكلى، تحرّض العين على البكاء ذكرى مشاهد أشلاء النّاس الّتي لوّنت سماء الأفق، ففرّت معها نوارس المرفأ الحزين الى سماءٍ أخرى، كأنّها كفرت بالأمان ها هنا، و ماتت كلمات نزار قباني حين نعى حبيبته بلقيس شهيدةً في بيروت قائلًا: "قتلوكِ في بيروت، مثل أيّ غزالةٍ، من بعدما قتلوا الكلام"..

كانت بلقيس ضحيّة الحرب، أمّا نحنُ ضحايا وجع كلّ قصيدةٍ لم تكتب لشهيد..

لو يُقتل الموت، لا القصيدة، لا الطّيور، ولا زيد..

لو تُرفع راية السّلام في وطني، لانكوى جرح أمّي الرابض في قلبها، لاندملَتْ ندوب روحي الملتاعة بأخي الشّهيد، ولالتأمت جراح كلّ فاقدٍ لِذويه..

لكن المجازر من عادتها، مفجعة، تحبُّ أن تدخل قصص التاريخ..

٤آب٢٠٢٠: الوجع الأكبر، والمصاب الدّامي، و طعن حلميَ الأوّل..

حرّكتُ يديّ ببطءٍ لأختار ورقةً أخرى، كانت إحدى الرّسائل التي كتبتُها لي، إلى المستقبل:" عزيزتي الحالمة ياسمين، في يومٍ ما، عندما تكبرين، ستفخرين بنفسكِ كثيرًا، تعلمينَ أنَّ الغربة مُرّة، تدركينَ أنّها أخذت منكِ موطنكِ، و لكنّكِ ستعاودينَ الوقوف، لكِ أمٌّ هنا لا تتوقف عن الدّعاء كل يومٍ في صلواتها الخمس، و هناكَ من يحتاجون سخاءكِ الإنسانيّ، كوني قويّة، واجهي الغربة، ستكونينَ يومًا ما أردتِ، طالما أنّكِ تؤمنين بذلك، ستكونينَ فخرًا للبنان الّذي تحلمين به، ولا تنسي أنّكِ تستطيعين تغيير العالم، و تداوين مرضى السّرطان..

هذا الغياب ما هو إلّا أملٌ يستحقُّ أن تناليه، فتُقدّميه للسّائلين، للوطن بأكمله.

أُقرؤك الحبَّ الّذي يكبر معنا كلّ يومٍ، ستعودين مكلّلة بكلّ الرجاءاتِ التي تنتظرك هنا.

عودي لأن وطنًا يعجُّ بالأمراض، بحاجة لطبيبةٍ تدسُّ الأملَ في براعم الربيع، في بناة البلاد.

أرجوكِ، تحلّي بالحبِّ و الشّغف"..

كادت الغصّة تخنقني، وأنا أقرأ أسطري هذه، كم كانت مليئةً بالحياة.

رحتُ محملةً بالآمال، عدتُ والخيبات تصاحبُني..

كم كانَت قاسيةً هذه البلاد! كم هو قاسٍ هذا السرطان!

الآن أنا أعود طبيبة كما وعدتُني، لكنّني أتمنّى أن أَكْفِيَ كلّ جراح وطني الموجوع..

وضعت خيبتي الأخرى جانبًا، وقرّرتُ أن لا أكمل قراءة أحلامي المدفونة.

ضاق بيَ المكان، تركتُ صندوق أحلامي وحيدًا، جرّدته من مدامعي، شعرتُ بأنّني أختنق، قررتُ في هذه اللّحظات أن أطرد عن وجهي الشّاحب هذا، كلّ الكآبة التي تعتريه، و عزمت على مغادرة المكان، تنهّدت، وضّبت تعبي في جيبي لأفرغه في البحر الذي يتّسع لكلِّ المتعَبين.

مضيتُ نحو الشّارع، قُبالتي، مشيتُ و في كلّ خطوة أخطّها أملٌ قليلٌ و خيبةٌ أكثر. أنقذَني الله من ثقل الخطوات، جاءَت سيّارة الأجرة لتقلّني إليه، ظننت به أنّ روحي ستستكين، لكنّ الحياة صفعتني حين وصلت.

الإنسان خُلقَ ليحلم، اعتقدتُ بأنّ البحر سيزيدني رغبة بالحلم حتّى بعدما كبرت..

وصلتُ، رحت أمشي على الشاطئ، حينًا أقترب و حينًا أبتعد، الأمواج تلاطمني، أحسها تنبّهني بعدم الحلم في وطني، لم آبه بقوّتها، سرتُ إلى الأمام، كأنّ شيئًا من بعيد يهتف لي، إنّها قارورة زجاجيّة، بدت لي كأنّها تدعوني لأنقذها من براثن البحر، كانت تحتوي على ورقةٍ واحدةٍ تنام على سطح الماء، يهدهدها الهواء، يأخذها و يجيء بها كطفلٍ يريد أن يغفو، صرت أبحث عن صخرةٍ قريبةٍ منّي، لأعتقها من رقّ الزجاجة.

في البحر وحدي، تائهة الخطى، لا أعي ما سيحلّ بي إن قرأتها.

وبضربةٍ واحدةٍ أبصرَتِ الورقةُ النور، استيقظتْ من سبات غفوتها.

فتحتها فإذ بي أجد ورقةً قد خُطَّ عليها :" إذا متُّ، لا تبحثوا عن بقيّتي، لن أعود".

يا إله السّماوات، هبني من لدنك طاقة، طاقة تجعلني أعبر بها نحو الشّاطئ حتّى لا أمسي ضحيّةَ وجع هذه الكلمات.

تذكرتُ التّاريخ المشؤوم فور رؤية هذه الرسالة.

٢٣ نيسان ٢٠٢٢: زورق الموت المفجع.

تساءلتُ في نفسي، أتراه كان يشعر بأن الموت سيلاقيه!؟ بماذا كان يحسّ حين كتبها؟! أكانت رسالة إنتحار!؟

ربّما كان يريد أن يسافر لأن لبنان لم يعد فيه أمل.

قَتلَهُ السّفر، قَتلَهُ البحر، قَتلَهُ لبنان.

لقد أصبحَ البحرُ هو المقبرة الّتي تدفن من يريد أن يحيا..

كنت أتمنى أن آتي إليه ليتّسع الحلم لا ليضيق، لأرى أصابع الشّمس كيف تبتلّ في الماء، كنت أريد أن أصبح شاعرةً تخطّ الجمال حين تنظر إليه..

لكنّ الأحلام حين لا تتحقّق تصبح كوابيسَ مرعبة.

كأنّني كنتُ الوحيدة الحزينة في هذا الوطن، حتّى فجأةً غفت كل الأحزان فيَّ حين سمعت قهقهات الأطفال مولّدةً في روحي أملًا غضًّا .

كان طفلٌ ينادي:" أمّاه، رسمت علمًا على الشّاطئ، أجميلٌ ما رسمت؟"

ضحكت الأم: "رائع يا بنيّ، أنت حقًّا مبدع" .

ودار حديثٌ بينهما، ارتأت الأمّ أن تنكز طينة ابنها فتثبر أغواره لتعرف مدى حبّه لوطنه، ثمّ أردفت باسمةً: "ماذا ستصبح في المستقبل يا وَلدي؟"

صمتَ الطّفل حالمًا ثم قال ببراءة:"عندما أكبر، سأصبح جنديًّا يا أمّي، أدافع عن وطني، سأعيد مجد لبنان القديم، وأقاتل في سبيل حماية أرزه الأخضر وتبقى رايتنا ترفرف أبد الدّهر، أعدكِ يا أمّي، أعدكِ".

كنتُ أرى حماسة الأمِّ في عينيها تكبر بعد كلّ كلمةٍ تخرج من فم هذا الطّفل المليئ بأحلام الغد، ابتسمتُ ثم تابعت سيري..

هناك، قدّم شابٌّ خاتمًا لعروسه معترفًا أمام حشدٍ من النّاس بحبّه الكبير لها.

لكنّ الّذي أثار فضولي، دهشتي حين صفّق الجمهور متهافتين: "مبارك أحمد، مبارك كريستينا."

أذهلني هذا الحبّ الصادق الذي تحدّى كل مبادئ المجتمع البدائيّ.

فالحبّ لا يعرف الأديان، هو بلا قيودٍ، و فوق كلّ شيءٍ، إنَّ الوطن الذي يحيا بالحبِّ، سيدوم ولن ينطفئ نوره.

شعرت بالسّلام يتسلّل الى قلبي، عدتُ أدراجي وأنا أحمل مجدّدًا مناي بأنَّ وطني رغم انطفائه مازال يشعّ بالحياة، فعدوت مرةً أخرى نحو صندوق أحلامي، ناسيةً كل خيباتي فيه، و واضعةً رسالةً كتبتها باللّون الأحمر: "ما زلتَ يا وطني بخير، وما زلتُ أحبّك".

غمرني شعور بالرضا، نمتُ مطمئنّةً حالمةً بغدٍ جميلٍ حيّ.

استيقظتُ في اليوم التّالي، على موسيقى العصافير الّتي أطربت مسمعي.

لم أشعر بكآبة الأمس بتاتًا، لقد اتّفقت معي الحياة اليوم، كان وديع الصّافي يغنّي في المذياع بصوته الجميل:

"لبنان يا قطعة سما

عالأرض تاني ما إلها

لوحات الله راسما

شطحات أحلى من الحلى"..

كل الرّجاءات أن تبقى يا لبنان، وطن الحبّ والجمال، و عنفوانًا سرمديًّا لا يضمحل!..

كنت يا وطني عالمي الوحيد، و هناك مكانٌ واحدٌ يلجأ إليه الإنسان بعد يومٍ متعب، ولا يمكنه مهما تعثّرت به الأقدارُ أن يعتاد مكانًا غريبًا عنه..

لم تكن الغربةُ يومًا حلًّا لهروبنا من مأساة الواقع، يتحتّم علينا في كلّ مرة، المواجهة والإصلاح، لأنّنا أبناء طائر الفينيق، قادرون أن نخرج من رماد الألم لنحلّق من جديد و نصنع لبناننا كما يحلو لنا.

جلستُ أراقب غروب الشّمس حتّى الرّمق الأخير، أفكّر كيف مضت تلك السنون وأنا أكبر بعيدةً عن عينيّ أمي التي منذ عودتي لم تملّ المجيء إلى غرفتي كلّ صباحٍ تتفقّدني، هل كانت عودتي حلمًا؟! هل أنا أمامها حقًّا!؟..

فكّرتُ في كلّ الذين تذوّقوا حنظل الغربة قسرًا، في غصّة كلّ أمٍّ لم تشهد ملامح ابنها و هو يكبر، لم تلمس وجهه كلّ صباح، لم يقبّل جبينها حين العودة، تنامُ على دمعة، و تستيقظ على أمل الرّجوع.

ألا يستحق لبناننا أن نبقى في ربوعه!؟ هذه الأرض الحزينة تحتاج من يضمّد جراحها..

ألا يمكننا أن نكفكف دموع الأمّهات؟! علينا العودة، فالوطن ينتظر سواعد أحلامنا المجبولة بطين الحبّ..

لبناننا اليوم بخيرٍ، أصبح بمقدوره أن يحمل كلّ حضارات العالم، و تتنافس فيه اللّغات المتنوّعة، يحتضن كلّ الأدمغة المغتربة، لبنان" قلب العالم القديم" وأغنى المعالم الأثريّة سيبقى صامدًا أمام الحرب و الغربة و الموت..

نحن بحاجة أن نضمّ كفوفنا سويًّا، و نقتدي بقول الشاعر إبراهيم محمود :

"تأبى العصيُّ إذا اجتمعن تكسّرًا..

و إذا افترقن تكسّرت آحادا"..

نحتاج لمن يبعث ببيروتَ حيّة بعد غفوتها، بيروتُ الحلوة تنتظر من يرقص حين تلبس عروسة الشرق فستانها الذي أخفته خزانة الرّابع من آب في دهاليزها، و أن يقوم القبطان بإطلاق أشرعة سفينته الغنيّة بالموارد، بالصّادرات، لا بالموتى!!

أن تُطرب العصافير على أصوات التّلاميذ الّذين يردّدون كلّ صباحٍ، النشيد الوطنيّ اللّبنانيّ:

"كلّنا للوطن..للعلى للعلم.."

وأن تعلوَ أغاني فيروز و الصّافي، و قصائد جبران و إيليا في حبّهم للبنان العريق..

آنَ أن نكتبَ نهايةً لكلّ هذا الوجع..

البارحة، حيث كنتُ في مكاني المعتاد، جالسة على الكرسيّ، أراقب انتهاء آخر خيط للشّمس، أغمضت عينيّ قليلًا، موجهةً رأسي نحو السّماء، فإذ بهاتفي يرن، أدرتُ رأسي نحوه لأجيب..

كان "الحلم" يتّصل بي:

_"مرحبًا، أأنتِ ياسمين!؟

_مرحبًا، نعم "

وبعد أن أخذ المتّصل عدّة معلومات عنّي، قال لي:

_"مبارك لكِ، لقد تمّ قبولك في إنشاء مشروع تبرّع لمرضى السّرطان، بإشراف من جمعيّتنا، سنتواصل معك لاحقًا."

لم تَسع فرحتي المكان، ذهبت إلى البحر مجدّدًا، أريد أن أحتفي بسماعي للخبر، قصدته و أنا لديّ من الكلمات ما يتّسع لقصيدة طويلة، قابلت شخصًا كنت مدركة أنّني أعرفه كما أعرفُني، كان أخي زيد..

لم أستطع أن أتفوّه بكلمةٍ واحدة، بقيتُ مذهولة أمام المشهد..

ما أخبرني به حينها لم يكن عاديًا أبدًا، لقد قال لي: " أنا والحلم توأمان ، اكملي لكي تحييني، لا تدعيني أموت مرّة أخرى، لا تقتلي الحلم، لا تقتليني، أرجوكِ.."

بكيتُ كثيرًا، أردتُ إخباره أمورًا عدّة، غير أنه اختفى فجأة و لم يبقَ أحدٌ سوى البحر. مسحتُ دموعي قليلًا ومشيتُ صوب الحلم من جديد.

وها أنا أقول للبحر، و لزيد أخي، و للعالم أجمع..

"نحن شعب بالأماني نحيا..

عاش الحلم، عاش لبنان."